نفحات من عبق السيرة النبوية

الدرس الخامس والعشرون

عناصر المحاضرة:

1. عمرة القضاء.
2. معركة مؤتة.
3. سرية ذات السلاسل.
4. فتح مكة المكرمة.

ونبدأ بقصة عباد بن بشر هذا البطل الشجاع العابد، وحدثت في أثناء العودة من غزوة ذات الرقاع التي ذكرناها في اللقاء السابق ونزولهم في شعب من الشعاب ليرتاحوا، القصة جاءت من حديث جابر رضي الله عنه في سنن أبي داود (1\ 90) وحسنه الألباني رحمه الله:((خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني في غزوة ذات الرقاع فأصاب رجل امرأة رجل من المشركين فحلف أن لا انتهي حتى أهريق دما في أصحاب محمد فخرج يتبع أثر النبي صلى الله عليه وسلم فنزل النبي صلى الله عليه وسلم منزلا فقال من رجل يكلؤنا فانتدب رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار فقال كونا بفم الشعب قال فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب اضطجع المهاجري(عمار بن ياسر رضي الله عنه) وقام الأنصاري(عباد بن بشر رضي الله عنه) يصلي وأتى الرجل فلما رأى شخصه عرف أنه ربيئة للقوم فرماه بسهم فوضعه فيه فنزعه حتى رماه بثلاثة اسهم ثم ركع وسجد ثم انتبه صاحبه فلما عرف أنهم قد نذروا به هرب ولما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدم

(وفي رواية: الدماء) قال سبحان الله ألا انبهتني أول ما رمى قال كنت في سورة أقرأها(الكهف) فلم أحب أن أقطعها)).

عمرة القضاء:

وفي ذي القعدة سنة 7 هـ خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - للعمرة التي تم الاتفاق عليها في صلح الحديبية، واستخلف على المدينة أبا رهم الغفاري، وساق معه ستين بدنة، وجعل عليها ناجية بن جندب الأسلمي، وحمل معه السلاح حذراً من غدر قريش، واستعمل عليه بشير بن سعد، وكان معه مائة فرس عليها محمد بن مسلمة.

وأحرم من ذي الحليفة ولبى، ولبى معه المسلمون، وواصل سيره حتى إذا بلغ وادي يأجَجُ وضع السلاح، وخلف عليها أوس بن خولي الأنصاري، في مائتين من الصحابة، وتقدم بسلاح الراكب: السيوف في القِرْبِ ، فدخل مكة من ثنية كداء (العليا مع الفتح) التي تطلعه على الحجون، وهو على ناقته القصواء، والمسلمون متوشحون السيوف، محدقون به، يلبى ويلبون، حتى دخل المسجد الحرام، فاستلم الحَجَرِ الأسوَدِ بمِحجَنِه ، ثم طاف - وهو على راحلته - وطاف معه المسلمون، ويرملون حول البيت، كاشفين مناكبهم اليمنى، شأن الفتوه والقوة(انتشر خبر انهم أصابتهم الحمى)، وعبدالله بن رواحة بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - متوحشاً بالسيف، يقول:

خَلّوا بَني الكُفّارِ عَن سَبيلِهِ خَلّوا فَكُلُّ الخَيرِ في رَسولِهِ

قَد أَنزَلَ الرَحمَنُ في تَنزيلِهِ في صُحُفٍ تُتلى عَلى رَسولِهِ

بِأَنَّ خَيرَ القَتلِ في سَبيلِهِ يا رَبُّ إِنّي مُؤمِنٌ بِقيلِهِ

أَعرِفُ حَقَّ اللهِ في قَبولِهِ نَحنُ ضَرَبناكُم عَلى تَأويلِهِ

كَما ضَرَبناكُم عَلى تَنزيلِهِ ضَرباً يُزيلُ الهامَ عَن مَقيلِهِ

وَيُذهِلُ الخَليلَ عَن خَليلِهِ أَو يَرجِعَ الحَقُّ إِلى سَبيلِهِ

فقالَ لَهُ عمرُ: يا ابنَ رواحةَ، بينَ يدَي رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ، وفي حرَمِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ تقولُ الشِّعرَ؟ فقالَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ: خلِّ عنهُ، فلَهوَ أسرَعُ فيهم من نَضحِ النَّبلِ. صحيح النسائي

✉وكان المشركون جالسين على جبل قُعَيقِعَانَ - شمالي الكعبة - وقد قالوا فيما بينهم: إنه يقدم عليكم وفد قد وهنتهم حمى يثرب، فلما رأوا المسلمين يرملون قالوا: هؤلاء أجلد من كذا كذا، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمرهم أن يرملوا في الأشواط الثلاثة الأولى ليري المشركين قوتهم، إلا ما بين الركن اليماني والحجر الأسود، فإنه في الجنوب، في جهة لم يكن يراها المشركون.

✉فلما فرغ من الطواف سعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط، ثم نحر هديه عند المروة، وحلق رأسه، وكذلك فعل المسلمون، ثم بعث رجالاً من الصحابة إلى بطن يأجج ليكونوا على السلاح، ويأتي من بقى هناك من الصحابة فيؤدوا نسكهم.

✉وأقام بمكة ثلاثة أيام تزوج خلالها ميمونة بنت الحارث الهلالية - وكانت زوجة سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب وخالة ابن العباس - فلما بلغتها الخطبة وكل أمرها إلى العباس، فزوجها العباس بالنبي - صلى الله عليه وسلم -، وهو حلال، فإنه اعتمر أول ما دخل مكة، ثم حل فبقى حلالاً.

✉وبعد انتهاء الأيام الثلاثة المحدَّدة للعمرة جاء سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى موفدين من قِبَل قريش لحثِّ الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه على الخروج؛ فقالوا له بغلظة: إنه قد انقضى أجلك؛ فاخرج عنا، فأراد -صلى الله عليه وسلم- أن يتلطَّف معهم بالرغم من جفائهم، فقال لهم: «وَمَا عَلَيْكُمْ لَوْ تَرَكْتُمُونِي فَأَعْرَسْتُ (أتممت العرس على ميمونة) بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ فَصَنَعْتُ لَكُمْ طَعَامًا فَحَضَرْتُمُوهُ؟» (رواه الحاكم).

✉لقد أراد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يكون طبيعيًّا تمامًا في تعامله معهم؛ بل أراد أن يكون ودودًا كريمًا مضيافًا يدعوهم إلى طعامه وشرابه واحتفاله بعُرسه، متناسيًا تمامًا تاريخهم الأسود معه أراد كل ذلك، وأرادوا هم غير ذلك! لقد رَدُّوا عليه في جفاء الأعراب: لا حاجة لنا في طعامك، فاخرج عنَّا!

✉ورغم هذه المعاملة الجافَّة، ورغم قوَّة المسلمين وضعف الكافرين، فإن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- احترم عهده وميثاقه، وخرج دون مماطلة، وانطلق دون تباطؤ إلى المدينة المنورة.

✉وفي صبيحة اليوم الرابع غادر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة راجعاً إلى المدينة، فلما بلغ سرف على بعد تسعة أميال من مكة نزل بها وأقام، وهناك زفت إليه ميمونة - رضي الله عنها - فبنى بها، ثم عاد إلى المدينة فرحاً مسروراً بما حباه الله من تصديق رؤياه، وشرفه بطواف بيته، ومن عجيب قدر الله أن ميمونة - رضي الله عنها - لما توفيت كانت بسرف فدفنت هناك.

وبعد رجوعه - صلى الله عليه وسلم - من عمرة القضاء أرسل عدة سرايا إلى جهات متعددة أهمها سرية مؤتة، ثم سرية ذات السلاسل.

معركة مؤتة:

[جمادى الأولى سنة 8 هـ]

✉سبق في ذكر كتب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الملوك والأمراء أن شرحبيل بن عمرو الغساني (أمير البلقاء) كان قد قتل الحارث بن عمير الأزْدي - رضي الله عنه -، حامل كتاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى عظيم بصرى، وكان ذلك بمثابة إعلان الحرب، فلما بلغ ذلك أمر زيد بن الحارثة، وقال: إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة، وعقد لواءًا أبيض حمله زيد بن حارثة.

✉وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير فيدعوهم على الإسلام، فإن أبوا قاتلوهم، وقال: اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، ولا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليداً، ولا امرأة، ولا كبيراً فانياً، ولا منعزلاً بصومعة، ولا تقطعوا نخلاً، ولا شجرة ولا تهدموا بناء.

✉وشيع الجيش إلى ثنية الوداع ثم ودعه، فسار الجيش حتى نزل معان - بجنوب الأردن - فبلغهم أن هرقل نازل بمآب في مائة ألف من الروم، انضم إليهم من متنصرة العرب مائة ألف، فتشاوروا ليلتين هل يكتبون ذلك إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويطلبون منه المدد - إنما يقدمون على الحرب؟ فشجعهم ابن رواحة بأن الذي تكرهونه - وهي الشهادة - إنما خرجتم تطلبونه، ونحن

ما نقاتل بعدد ولا قوة ولا كثرة، وإنما نقاتل بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، وما هي إلا إحدى الحسنيين، إما الظهور وإما الشهادة، فقالوا: صدق والله ابن رواحة، فتقدموا ونزلوا بمؤتة، وتعبؤوا وتهيؤوا للقتال.

⌧ودارت معركة عنيفة ورهيبة، وعجيبة في تاريخ البشر: ثلاثة آلاف مقاتل يواجهون جيشاً عرمرماً - مائتي ألف - ويصمدون في وجهه، وهذا الكم الهائل من المدججين بالسلاح يهجم عليهم طول النهار، ويفقد كثيراً من أبنائه وأبطاله، ولا ينجح في دحرهم.

⌧أخذ راية المسلمين زيد بن حارثة فقاتل وقاتل، ثم قاتل وقاتل حتى شاط في رماح القوم، وخر شهيداً في سبيل ربه، ثم أخذ الراية جعفر بن أبي طالب فقاتل وقاتل، حتى إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه الشقراء وعقرها، ثم قاتل حتى قطعت يمينه، فأخذ الراية بشماله، فلم يزل رافعاً لها حتى قطعت شماله، فاحتضنها بعضديه حتى أبقاها تخفق في جو السماء، إلى أن قتل بعد أن أصابته بضع وتسعون من طعنة ورمية، كل ذلك فيما أقبل من جسده، وجاءت نوبة عبد الله بن رواحة فأخذ الراية وتقدم، واقتحم عن فرسه المعمعة، ثم لم يزل يقاتل حتى قتل.

❍قد سالت الدماء غزيرة في أرض مؤتة، وتناثرت الأشلاء في كل مكان، ورأى الجميع الموت مرارًا ومرارًا.

❍كانت ملحمة بكل المقاييس، سقط على إثرها أول شهيد للمسلمين، وهو البطل الإسلامي العظيم والقائد المجاهد زيد بن حارثة رضي الله عنه، حِبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، سقط مُقبِلاً غير مدبر بعد رحلة جهاد طويلة بدأت مع الأيام الأولى لنزول الوحي.

❍حمل الراية بعد زيد بطل آخر هو جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، ذلك البطل الشاب المجاهد ابن الأربعين عامًا آنذاك، وقد قضى معظم هذه السنوات الخوالي في الإسلام، حيث أسلم في أوائل أيام الدعوة، وقضى ما يقرب من خمس عشرة سنة في بلاد الحبشة مهاجرًا بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم عاد منها إلى المدينة المنورة في محرم سنة سبع من الهجرة، كان الرسول

صلى الله عليه وسلم حينها في خيبر، فلم يَقَرّ له قرار حتى ذهب ليجاهد معه برغبة حقيقية صادقة في البذل والتضحية.

وقد أدرك أن الموت محيط به، وأن سهم المنية أقرب إليه، فتذكر سلعة الله فهانت عليه نفسه، خاطب سلعة ربه بأبيات قال فيها:

يَا حَبَّذَا الْجَنَّةُ وَاقْتِرَابُهَا طَيِّبَةٌ وَبَارِدٌ شَرَابُهَا

وَالرُّومُ رُومٌ قَدْ دَنَا عَذَابُهَا كَافِرَةٌ بَعِيدَةٌ أَنْسَابُهَا

عَلَيَّ إِذْ لاقَيْتُهَا ضِرَابُهَا

قَالَ عبدُ اللَّهِ بن عمر رضي الله عنه: "كُنْتُ فيهم في تِلْكَ الغَزْوَةِ، فَالْتَمَسْنَا جَعْفَرَ بنَ أَبِي طَالِبٍ، فَوَجَدْنَاهُ في القَتْلَى، ووَجَدْنَا ما في جَسَدِهِ بضْعًا وتِسْعِينَ؛ مِن طَعْنَةٍ ورَمْيَةٍ". صحيح البخاري

❍ومن أرض المعركة إلى الجنة مباشرة، لا يسير فيها، بل يطير بجناحين، فقد روى الحاكم والطبراني بإسناد جيد عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "رَأَيْتُ جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ مَلَكًا فِي الْجَنَّةِ، مُضَرَّجَةً قَوَادِمُهُ بِالدِّمَاءِ، يَطِيرُ فِي الْجَنَّةِ".

وروى البخاري أيضًا أن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- كان إذا حيَّا ابن جعفر قال: "السلام عليك يا بن ذي الجناحَيْنِ".

❍فقد أبدل الله جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه بدلاً من يديه اللتين قطعتا في سبيله بجناحَيْنِ يطير بهما في الجنة.

❍حمل الراية بعد جعفر عبد الله بن رواحة الخزرجي الأنصاري رضي الله عنه، ذلك المجاهد الشاب الذي شارك في كل الغزوات السابقة، إن تحمل آلام الضرب بالسيف، والطعن بالرمح ليس أمرًا سهلاً أو هينًا في حياة الإنسان، فإذا قال الإنسان لنفسه بعض الكلمات التي تصبّره على تحمل الآلام، وتصبره على فراق الأحبة، وتدفعه إلى الموت لا إلى الحياة، فما الضرر في ذلك؟! إن هذا أمر محمود، بل وقد يكون مطلوبًا، وقد كان من شعره يومئذٍ:

يَا نَفْسُ إِنْ لَمْ تُقْتَلِي تَمُوتِـي *** هَذَا حِمَامُ الْمَوْتِ قَدْ صُلِيتِ

وَمَا تَمَنَّيْتِ فَقَدْ أُعْطِيتِ *** إِنْ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدِيتِ

✉يحدِّث نفسه: إن تفعلي كما فعل زيد وجعفر -رضي الله عنهما- هديت. وبالفعل كان قتاله شديدًا، وجهاده عظيمًا حتى طعن في صدره رضي الله عنه، وتلقى الدماء بيديه ودلَّك بها وجهه، وأصيب شهيدًا كما ذكر صلى الله عليه وسلم في مسند أحمد، وسنن النسائي، والبيهقي عن أبي قتادة رضي الله عنه بسند صحيح

✉وحتى لا تسقط الراية أخذها ثابت بن أرقم وقال للمسلمين: اصطلحوا على رجل، فاصطلحوا على خالد بن الوليد، وبذلك انتقلت الراية إلى سيف من سيوف الله، وتقدم خالد بن الوليد فقاتل قتالاً منقطع النظير حتى انقطعت في يده تسعة أسياف، وأخبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أصحابه بالمدينة في نفس اليوم بمقتل القادة الثلاثة، وبانتقال القيادة إلى خالد بن الوليد، وسماه سيفاً من سيوف الله.

عن أنس بن مالك رضى الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم نعى زيدا وجعفر وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال: «أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذ جعفر فأصيب ثم أخذ بن رواحة فأصيب - وعيناه تذرفان - حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم». رواه البخاري وهنا يذهب الحبيب صلى الله عليه وسلم إلى أسماء بنت عميس رضي الله عنها ليبلغها خبر استشهاد زوجها... ويا له من مشهد يجعل القلوب تبكي الدماء بدل الدموع.

❍عن أسماء بنت عميس، قالت: «لما أصيب جعفر وأصحابه دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد دبغت وعجنت عجيني، وغسلت بني ودهنتهم ونظفتهم، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ائتني ببني جعفر». قالت: فأتيته بهم، فشمهم وذرفت عيناه، فقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: «نعم، أصيبوا هذا اليوم». قالت: فقمت أصيح، واجتمعت إلي النساء، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في أهله. فقال: «لا تغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاماً فإنهم قد شغلوا بأمر أصحابهم»، (رواه أحمد).

عَنْ خَالِدِ بْنِ سَلَمَةَ، قَالَ: لَمَّا جَاءَ نَعْيُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ أَتَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْزِلَ زَيْدٍ فَخَرَجَتْ عَلَيْهِ ابْنَةٌ لِزَيْدٍ فَلَمَّا رَأَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْهَشَتْ فِي وَجْهِهِ فَبَكَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمُ حَتَّى انْتَحَبَ فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذَا ؟ قَالَ : " هَذَا شَوْقُ الْحَبِيبِ إِلَى حَبِيبِهِ " الإخوان لابن أبي الدنيا

✉وبانتهاء النهار رجع الفريقان إلى مقرهما، فلما أصبحوا غير خالد - رضي الله عنه - ترتيب العسكر، فجعل الساقة مقدمة، والمقدمة ساقة، والميسرة ميمنة، والميمنة ميسرة، فظن العدو أن المدد قد وصل للمسلمين فداخله الرعب.

❍جعل الخيل طوال الليل تجري في أرض المعركة لتثيرَ الغبار الكثيف؛ فيُخيَّل للرومان أن هناك مددًا قد جاء للمسلمين.

✉وبعد مناوشة خفيفة بدأ خالد يتأخر بالمسلمين، فلم يجترئ العدو على التقدم، خوفاً من أن تكون خدعة، فانحاز المسلمون إلى مؤتة، ومكثوا سبعة أيام يناوشون العدو، ثم تحاجز الفريقان وانقطع القتال، لأن الروم ظنوا أن الإمدادات تتوالى على المسلمين، وأنهم يكيدون بهم ليجروهم إلى الصحراء حيث لا يمكنهم التخلص، وبذلك كانت كفة المسلمين راجحة في هذه الغزوة.

وقتل في هذه الغزوة اثنا عشر رجلاً من المسلمين، أما عدد قتلى العدو فلم يعرف، إلا أنهم قتلوا بكثرة.

وعنِ ابنِ مسعودٍ قالَ لمَّا قُتِلَ زيدُ بنُ حارثةَ أبطأَ أسامةُ عنِ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ فلم يأتِهِ ثمَّ جاءهُ بعدَ ذلكَ فقامَ بينَ يديِ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وعلى آلِه وسلَّمَ فدمَعتْ عيناهُ فبكى رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وعلى آلِه وسلَّمَ فلمَّا نُزِفت عبرتُهُ قالَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ لِمَ أبطأتَ عنَّا ثمَّ جئتَ تُحزِنُنا قالَ فلمَّا كانَ الغدُ جاءهُ فلمَّا رآهُ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وعلى آلِه وسلَّمَ مقبِلًا قالَ إنِّي للاقٍ منكَ اليومَ ما لقيتُ منكَ أمسِ فلمَّا دنا دمعت عينُهُ فبكى رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وعلى آلِه وسلَّمَ. الصحيح المسند

سرية ذات السلاسل:

ونظراً لموقف عرب الشام في معركة مؤتة رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - القيام بعمل حكيم يكيفهم عن نصرة الرومان والقيام بجانبهم، فأرسل إليهم عمرو بن العاص - رضي الله عنه - في ثلاثمائة من الصحابة، ومعهم ثلاثون فرساً، ليستأنفهم، لأن أم أبيه كانت من قبيلة بـِلي: إحدى قبائلهم، فإن أبوا فليلقنهم درساً على قيامهم بجانب الروم، فلما قرب منهم بلغه أن لهم جمعاً كبيراً، فاستمد من رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فأمده بمائتين من سراة المهاجرين والأنصار، وعليهم أبو عبيدة بن الجراح، وكان عمرو بن العاص هو الأمير العام وإمام الصلاة، فدوخ بلاد قضاعة حتى لقي جمعاً، فلما هجم عليهم فروا وتفرقوا.

والسلاسل بقعة وماء وراء وادي القرى، إليها نسبت هذه السرية، لأن المسلمين نزلوا بها، وكان ذلك في جمادى الآخرة سنة 8 هـ. أي بعد الشهر الذي وقعت فيه معركة مؤتة.

الفتح الأعظم: فتح مكة المكرمة:

السبب والاستعداد والإخفاء

وفي رمضان سنة 8 من الهجرة فتح الله تعالى لرسوله - صلى الله عليه وسلم - مكة المكرمة، وهو الفتح الأعظم، وأعز الله به دينه ورسوله، وأنقذ به بيته وبلده، واستبشر به أهل السماء، ودخل به الناس في دين الله أفواجاً.

وسببه أن بني بكر دخلوا مع قريش في عهد الحديبية، وكانت بينهم وبين خزاعة دماء وثارات في الجاهلية اختفت نارها بظهور الإسلام، فلما وقعت هدنة الحديبية اغتنمها بنو بكر، وأغاروا في شهر شعبان سنة 8 هـ على خزاعة ليلاً، وهم على ماء يقال له: الوتير، فقتلوا منهم ما يربو على عشرين، وطاردوهم إلى مكة حتى قاتلوهم فيها، وأعانتهم قريش سراً برجال وسلاح، وكانت خزاعة قد دخلت مع المسلمين في عهد الحديبية، وكان قد أسلم عدد منهم، فأبلغوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الخبر، فقال: والله لأمنعنكم مما أمنع نفسي منه.

✉وأحست قريش بسوء فعلتها، وخافت نتائجها، فأسرعت بإرسال أبي سفيان إلى المدينة ليشد العقد ويزيد في المدة، فلما جاء المدينة نزل على ابنته، أم المؤمنين، أم حبيبة - رضي الله عنها -، وأراد أن يجلس على فراش فطَوَتْهُ دُونَهُ، فقال: يا بُنَيَّةُ، ما أدْري: أرَغِبْتِ بي عن هذا الفِراشِ، أَمْ رَغِبْتِ بهِ عنِّي؟ قالت: هو فراش رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وأنت مشرك نجس، قال: والله لقد أصابك بعدي شر. ضعيف الدرر السنية

✉ثم جاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فكلمه فلم يرد شيئاً، فذهب إلى أبي بكر ليكلم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: ما أنا بفاعل. فأتى عمر فأبى، وشدد في الكلام، فأتى عليا فاعتذر، وأشار عليه أن يجير بين الناس ويرجع، ففعل.

✉أما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتجهز للغزو، وأمر أصحابه بذلك، واستنفر الأعراب الذين حول المدينة، وكتم الخبر، ودعا الله: "اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش، حتى نبغتها في بلادها".

✉وزيادة في الكتمان أرسل أبا قتادة - رضي الله عنه - في أوائل رمضان إلى بطن إضم، وعلى بعد ستة وثلاثين ميلاً من المدينة، ليظن الظان أنه يريد هذه الناحية.

✉وكتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم فيه بمسير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إليهم، وأعطاه امرأة على جعل، فأتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الخبر من السماء، فأرسل عليا والمقداد والزبير ومرثداً الغنوي، وقال: انطلقوا إلى روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها، فأتوها وطلبوا 3 فأتوا به رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فقال: ما هذا يا حاطب؟ فأعتذر بأن في مكة أهلاً وعشيرة وولداً، وليست له فيهم قرابة يحمونهم لأجلها، فأراد أن يتخذ عندهم يداً يحمون بها أهله، ولم يفعله ارتداداً عن الإسلام، ورضىً بالكفر، فقال عمر، دعني يا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله، وقد نافق، فقال - صلى الله عليه وسلم "إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله أطلع على أهل بدر، فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم"، فذرفت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم.

في الطريق إلى مكة:

ولعشر من رمضان سنة 8 هـ غادر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة، متجهاً إلى مكة، ومعه عشرة آلاف من المسلمين، واستعمل على المدينة أبا رهم الغفاري.

ولما بلغ الجحفة لقيه عمه العباس من أهله مسلماً مهاجراً، وبالأبواء لقيه ابن عمه أبو سفيان بن الحارث، وابن عمته عبد الله بن أبي أمية فأعرض عنهما، لأنه كان يلقى منهما شدة الأذى والهجو، فقالت له أم سلمة: لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك، وقال علي لأبي سفيان: ائته من قبل وجهه، وقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف: { قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ } ، ففعل، فقال - صلى الله عليه وسلم { قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } ،فأنشده أبو سفيان أبياتاً مدحه فيها واعتذر عما فعل به سابقاً.

ولما بلغ كديداً ورأى أن الصوم شق على الناس أفطر، وأمر الناس بالإفطار، ثم واصل سيره حتى نزل بمر الظهران عشاء، فأمر الجيش فأوقدوا عشرة الآف نار، كل على حدته، وجعل على الحرس عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -.

وخرج أبو سفيان خائفاً يترقب، ولا يعلم شيئاً، ومعه حكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء، فلما رأى النيران قال: ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً، قال بديل خزاعة، قال أبو سفيان: خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

أبو سفيان بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم:

وكان العباس - رضي الله عنه - على بغلة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتجول، فلما سمع الصوت عرفه فقال: أبا حنظلة؟ فقال: أبا الفضل؟ قال: نعم. قال: مالك؟ فداك أبي وأمي، قال: هذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الناس، واصباح قريش والله، قال: فما الحلية؟ فداك أبي وأمي، قال: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فركب، فلما مر بعمر بن الخطاب رآه فقال: أبو سفيان؟ عدو الله؟ الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، واشتد إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وركض العباس

البغلة فسبق إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ثم دخل عمر واستأذنه في ضرب عنق أبي سفيان، فقال العباس: إني أجرته، وأخذ برأس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال: لا يناجيه الليلة أحد دوني، وأكثر عمر، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم – ساكت، ثم قال للعباس: اذهب به إلى بيتك، فإذا أصبحت فأتني به، فلما جاء به الصبح قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم "ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله، قال أبو سفيان: ما أحلمك وأكرمك وأوصلَكَ، ولو كان معه إله غيره لأغنى عني شيئاً بعد، قال: "ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله"، قال: أما هذه فإن في النفس حتى الآن منها شيء، فقال العباس: أسلم قبل أن تضرب عنقك، فأسلم وشهد شهادة الحق، فقال العباس: يا رسول الله! إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً، قال "نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن".

المراجع:

❶روضة الأنوار في سيرة النبي المختار المباركفوري.

❷الرحيق المختوم المباركفوري.

❸ما هي عمرة القضاء: راغب السرجاني.

❹ أحداث معركة مؤتة: راغب السرجاني.